

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

السرد الجزائري المعاصرتحت مجهرالنقد الثقافي

النسق المضمرفي رواية "قلب الإسباني" لجميلة طلباوي

**Contemporary Algerian Narrative Under The Lens Of Cultural Criticism:
The Implicit Structure In Jamila Talbaoui's Novel "The Spaniard's Heart"**

¹ حسين بوفناز *hocine boufenaz*، ² حياة بوسعدة *heyat boussaada*

¹ أستاذ محاضر ب، جامعة محمد أمين دباغين سطيف2، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي،

Assistant Professor B, University Of Mohamed Lamine Debaghin Setif2, College Of Arts
and Languages, Department Of Arabic Language and Literature.

h.boufenaz@univ-setif2.dz

² طالبة دكتوراه، جامعة محمد خيضر بسكرة، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي،

PhD Student, University Of Mohamed Khidir Biskra, College Of Arts and Languages,

Department Of Arabic Language and Literature.

heyat.boussaada@univ-biskra.dz

الإيميل: *h.boufenaz@univ-setif2.dz*

المؤلف المراسل: حسين بوفناز *hocine boufenaz*

تاريخ القبول: 2024/12/26

تاريخ الاستلام: 2024/10/05

الملخص :

أخذت الرواية الجزائرية المعاصرة حيّزا هاما في ميزان الدراسات النقدية لما تحمله من خصائص سردية وفنية متميزة وكذلك معالجتها كثير من المواضيع الاجتماعية والثقافية والايولوجية، الأمر الذي جعلها تشكّل مضمرات في متونها لتكون بذلك حقلا خصبا للمقاربة والتحليل وفق كثير من المناهج النقدية الحديثة ومابعد الحداثة. إنّ ما يهمنا في هذه الورقة البحثية استجلاء المضمر من هذه النصوص السردية الجزائرية، متخذين من رواية "قلب الإسباني" لجميلة لطباوي نموذجا لهذه المقاربة كونها تشكّل صراعا ثقافيا مسكوتا عنه بين الأنا العربية والآخر الغربي في توليفة متشابكة نقف لرصدها وقف استراتجية النقد الثقافي باعتباره المنهج الذي يبحث في المضمرات والصراعات المتخفية وراء الجماليات الإبداعية. بناءً على ذلك فإنّ هذه الدراسة تهدف إلى الإجابة على الاشكالية الآتية: ما هي أهم المضمرات التي شكّلت صراعا ثقافيا في رواية قلب الإسباني؟

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، النسق، المضمر، قلب الإسباني، جميلة لطباوي.

Abstract:

Algerian contemporary narrative has gained significant attention in critical studies due to its distinctive narrative and artistic features, as well as its treatment of many social, cultural, and ideological issues. This has made it a fertile ground for analysis and interpretation according to many modern and postmodern critical approaches. In this research paper, our focus is on uncovering the implicit messages within these Algerian narratives, using Jamila Talbaoui's novel "The Spaniard's Heart" as a model for this analysis. The novel represents a cultural conflict, often silenced, between the Arab self and the Western other, intertwined in a complex narrative. We aim to explore this using the strategy of cultural criticism, a methodology that explores the hidden conflicts and implications behind artistic aesthetics. This study seeks to answer the following question: What are the key implications that have formed a cultural conflict in the novel "The Spaniard's Heart?"

Keywords: Cultural Criticism, Pattern, Implicit Messages, The Spaniard's Heart, Jamila Talbaoui.

مقدمة:

منه مفهوم مركزي وأصبح يطلق عليها المناهج النسقية، ثم جاءت موجة ما بعد الحداثة التي بدورها أبتقت على مصطلح "النسق" لكن بمفهوم جديد مع النقد الثقافي، من هذا المنطلق حقّ علينا في هذا الإطار طرح التساؤل الآتي: ما هي أهم التحولات التي طرأت على النسق بين الدرس اللساني البنيوي والنسق في الدرس الثقافي؟

أولا. النسق واللسانيات *Systeme et Linguistique*:

شهدت أوروبا نهضة في أواخر القرن التاسع عشر مسّت جميع الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكذلك الأدبية بوجه عام واللغوية على وجه الخصوص خاصة بعد الدراسات التي جاء بها السويدي فرديناند دي سوسير التي كانت بمثابة قطيعة مع الدراسات التاريخية للغة. حيث أصبح يدرس اللغة دراسة آنية وصفية، ومع مجيء سوسير أجرى تغييرا في مجرى اللسانيات وأدخلها إلى مجال العلمية والتجريد واستخدام أفكار جديدة مثل فكرة "الثنائيات" ومن ضمن الأفكار التي جاء بها أيضا فكرة "النسق"، لكن هو استخدم مصطلح *Systeme*، وقد اتضح هذا في كتابه الشهير "محاضرات في اللسانيات العامة *Cours de Linguistique Générale*": "يتجلى النسق عند دي سوسير في ثلاث مستويات: اللسان *La langue* اللغة *La* *language* والكلام *Le parole* وجعلها في شكل ثنائيات متناقضة، وفيها تظهر فكرة النسق (نسق اللغة)، وهو انتظامها لهذا على اللساني الاهتمام بالنسق اللغوي أثناء دراسته الظاهرة اللغوية، لأن اللغة لا تعبر بعلامة واحدة بل بعلامات متعددة. فاللغة ليست مجرد أصوات وأفكار فحسب، بل هي النسق، فالعلامة بذاتها تقل أهمية ما لم تكن مجاورة للعلامات الأخرى، ونحن كأفراد ننتهي إلى مجتمع لا يمكن لأحد الخروج منه ومن قواعد اللغة المتواضع عليها"¹.

هذا معناه أن النسق اللغوي يتشكل من خلال التركيب وأن العلامة اللغوية تكتسب دلالتها من علاقتها بالعلامات الأخرى، وهذا يحيلنا إلى مفهوم النسق في علاقة العنصر بالعنصر الذي يلها مع شرط أن يكون منظم، والواقع أن مفهوم اللغة ليس منحصرًا في مجرد كونها ألفاظًا دالة على مسميات هذا تعريف يصح ظاهريا، ولكن جوهرها يكمن -

صورت الرواية الجزائرية المعاصرة مشهدا سوسيو ثقافي متميز، مركزة على العلاقات الاجتماعية بكل إبداعها التاريخية، الدينية، حضارية...، حيث كان كل روائي يمرر عبر نصوصه رؤى فكرية تمخضت عن وعيه بمرحلة معينة، مما جعله يتعامل مع الواقع بطرح مختلف عن ما قدمته الرواية في سابق عهدها، حيث أصبحت النصوص السردية الجزائرية المعاصرة تستمد مادتها وخطاباتها من رحم للمجتمع واشكالاته العميقة: لكن بشكل متواري أين تقنع كل كاتب وراء مهاراته الكتابية ولغته الفنية بكل قيمها الجمالية، لتكون بذلك هذه اللغة وعاء حاملا لفكر وثقافة صاحبها التي تشربها اطلاقا من تعايشه وعيشه في تكوين اجتماعي معين. من بين هذه النصوص رواية (قلب الإسباني) لجميلة طلباوي التي اتخذناها نموذجا لمقاربتها والكشف عن مضمراتها، كونها نص سردي جزائري حافل بالمضمر، حاكت فيه الروائية المجتمع الجزائري بكل أبعاده وقيمه، سردت فيه الكاتبة الكثير من الأحداث التاريخية من بينها سقوط الأندلس من يد العرب وأصبحت إسبانيا الغرب الآن ما شكل صراعا ثقافيا بين الحضارتين، كما صورت فيها عادات للجزائر تحديدا بمنطقة بشار مركزة حديثها هنا عن قيمة الدين الاسلامي ومكانته ف المجتمع، لكن في حديثها عن بعض العادات والممارسات العقائدية لمنطقة بشار الجزائرية اضمزت أمور منافية لتعاليم ديننا الإسلامي كل هذه الأفكار وأخرى جعلتنا نبحت في متاورينات هذا النص الإبداعي ونؤسس منها إشكالية لتكون منطلق لهذه الورقة البحثية، إشكالية تم صياغتها على النحو الآتي: ما هي أهم الأنساق المضمرة التي شكّلت لنا صراعا ثقافيا حضاري في نصها قلب الإسباني؟

المحور الأول. مركزة النسق بين اللسانيات والنقد

الثقافي:

يعد "النسق" أحد أهم المفاهيم المنبثقة عن موجة الحداثة التي أحدثت معها قطيعة عن كل ما هو سياقي، أول من نادى به كان اللساني فرديناند دي سوسير حين دعا إلى دراسة اللغة دراسة آنية كنظام لغوي مغلق، ثم تبنته كل المناهج النقدية التي كانت اللسانيات رافدا لها، حيث جعلت

إضافة إلى المكون السابق- في نسقها العقلي المتمثل في النحو، وهذا معطى منهجي خصص بمبحث مستقبل².

ثانياً. النسق والبنوية *Systeme et Structuralisme*:

كما هو شائع في ميدان النقد والدراسات النقدية أو البنيوية *Structuralisme* منهجي نسقي جاء كرد فعل على المناهج السياقية، التي اهتمت بالمؤلف والسياقات الخارجية على حساب النص/الخطاب، لكن البنيوية نادت بالدراسات المحيطة للنص وعزلته عن سياقاته المحيطة به، واعتمدت على مبدئها المشهور "موت المؤلف".

يجد الباحث عن ماهية البنيوية صعوبة في تحديد مفهوم شامل وموحد له، و"كلمة بنيوية *Structuralisme* مشتقة من كلمة بنية *Structure*، وهي بدورها مشتقة من الفعل اللاتيني *Struere*، أي بنى، وهو يعني بذلك الهيئة أو الكيفية التي يوجد الشيء عليها، أما في اللغة العربية فبنية الشيء تعني ما هو أصيل فيه وجوهري وثابت لا يتبدل بتبدل الأوضاع والكيفيات"³. هذا معناه أنّ البنيوية تبحث في الأمور الثابتة ولا تهتم بالأوضاع والتغيرات، بمعنى تُقصي السياقات الخارجية أثناء الدراسة، حيث يعرفها A. Lalande، "البنية (كالتالي) بمعنى خاص أو جديد تستعمل البنية من أجل تعيين كلّ مكوّن من ظواهر متضامّة، بحيث يكون كلّ عنصر فيها متعلّقاً بالعناصر الأخرى ولا يستطيع أن يكون ذا دلالة إلا في نطاق هذا الكل"⁴. نستنتج من خلال هذا التعريف أنّ البنيوية تهتم بالعلاقات التركيبية لظاهرة، لأنه لا يحدد معنى التركيب إلا في علاقة العناصر مع بعضها البعض (علاقة العنصر اللاحق بالعنصر السابق). ويعرف "ليفى شتروس" البنيوية بقوله: "أنّ البنية تحمل أولاً وقبل كلّ شيء طابع النسق أو النظام، فالبنية تتألف من عناصر إذا ما تعرض الواحد منها للتغيير أو التحول تحوّلت باقي العناصر الأخرى"⁵. يرى كلود ليفى شتروس أنّ البنية هي ذات طابع النسف أو النظام، هذا لأنها تشترك معا في فكرة التركيب والترتيب، وعلاقة العناصر التي تؤدي إلى الدلالة، ويؤكد على فكرة الشمولية والتحكم الذاتي والتحول التي هي أهمّ المبادئ التي تستند عليها البنيوية.

نصل من خلال هذه المفاهيم إلى أنّ البنيوية هي التي تبحث في النسق المغلق الثابت، لأنها تأثرت في هذا بالأسنية دي سوسير، "لذلك فإنّ البنيوية ترى أنّ المعقولة

والتفسير العلمي قائمان على الكشف عن النسق الثابت"⁶. من خلال مجموعة هذه الملاحظات والتعريفات يمكننا استنتاج خصائص المنهج البنيوي في المستوى الفكري: *التأكيد على النسق المعقول، الثابت داخل كل بنية وعلى استقلاله الذاتي، لهذا تنصرف البنيوية العقلانية على حساب التاريخية.

- البنيوية لا تهتم إلا بما هو واقعي.
- يستبعد التحليل البنيوي أيّ تدخل للشعور في تفسير الظواهر (اعتماد النسق المغلق).
- توظيف الرمز أو الرمزية⁷.

وتتواصل جهود النقاد البنيويين في مجال الدراسات البنيوية واللسانيات (الدراسات اللغوية)، ومن بين أهم النقاط التي ركّز عليها، هي "إدخال مفهوم النسق (حيث تكفّ الحدود عن أن تظنّ كيانات معزولة، ويتم النظر إليها كعناصر مترابطة لكل مبنى"⁸. هنا دعوا إلى الدراسة المغلقة للنص الأدبي وعزلوه عن جميع حيثياته، وتجاوزوا الدراسات السياقية، كالمنهج الاجتماعي، والتاريخي، والنفسي... وأخضعوا اللغة إلى التحليل التزامني (خاصة الأسنية)، ونادت بموت المؤلف، ولهذا "استبدلت البنيوية بمفهوم الإنسان نسقاً منتظماً من البنى الثابتة، الموجودة سلفاً، وجعله الناطق باسمها، كما أنّ البنى اخترقته... والواقع أنّ البنيوية انتصرت للعلم على حساب الإنسان"⁹. وعليه، يمكن القول أنّ النسق في المنظور البنيوي هو نسق ثابت مغلق وله علاقة بالبنية، لأنّ مجموعة البنى المنظمة في تركيب معيّن، والتي تحكم بينها علاقات لغوية فكلّ بنية لها علاقة بالبنية السابقة واللاحقة لها لتشكّل لنا بنية كليّة شاملة (النسق) وفيما بعد جاءت دراسات ثارت على هذا الانغلاق، الذي نادت به البنيوية، ونادت بانفتاح الأنساق، هذا لأنّ النسق المغلق يجعل من الدراسة ثابتة وقوالب جاهزة، ويحدّ من الدال على عكس النسق المفتوح الذي يفتح آفاقاً جديدة للقراءة من أجل توليد نصوص جديدة ودلالات متعددة لنص واحد.

ثالثاً. النسق والنقد الثقافي *Systeme et la critique Culturelle*:

مجالاً للرسالة ذاتها بأن تكون مهيأة للتفسير النسقي، بمعنى أنه في هذا الإجراء ستكتسب اللغة وظيفة سابعة هي الوظيفة النسقية، إضافة إلى وظائفها الستة: النفعية والتعبيرية والمرجعية والمعجمية والتنبيهية والشاعرية/الجمالية¹².

لكن هذه الإضافة الجديدة (الوظيفة النسقية) لا تلغي بقية الوظائف، إنما تُكسب اللغة أبعاداً أخرى موجودة داخلها، وهذا ما يؤكد عبد الله الغدامي في قوله: "إذا سلّمنا بوجود العنصر السابع (النسقي) ومعه (الوظيفة النسقية) فإن هذا سيجعلنا في وضع نستطيع معه أن نوجه نظرنا نحو الأبعاد النسقية التي تتحكم بنا وبخطابنا، مع الإبقاء على ما ألفنا وجوده وتعودنا على توقعه في النصوص من قيم جمالية وقيم دلالية"¹³. بمعنى أنّ اللغة والخطابات تحمل قيماً جمالية وأدبية وهذا ما ألفناه فيها، لكن العنصر السابع (النسقي) يكشف لنا جانباً آخر مضمّر ومخبوء وراء هذا الجمال، وهذا هو جوهر النقد الثقافي، ما جعل من العنصر النسقي "مبدأً أساسياً من مبادئ النقد الثقافي"¹⁴. وهو أيضاً يمثل لنا أساس التحول النظري والإجرائي من النقد الأدبي/الجمالي إلى النقد ببعده الثقافي، وكذلك لكي ننظر إلى النص بوصفه حادثة ثقافية، وليس فقط مجرد مجتلى أدبي فحسب، وبهذا تكون صورة الحال مع النموذج الاتصالي بعد إضافة العنصر السابع كالتالي¹⁵:

الشفرة

السياق

الرسالة

المرسل _____ المرسل إليه

أداة الاتصال

العنصر النسقي

- وأكد أنه مع هذا التغيّر وإضافة عنصر جديد (العنصر النسقي) ستصبح اللغة حينئذٍ نسقاً بإضافة واحدة إلى الستة المعهودة في ترسيمة رومان جاكبسون، وهي كالتالي:
- 1- ذاتية/ وجدانية (حين يركّز الخطاب على المرسل).
 - 2- إخبارية/ نفعية (حين يركّز الخطاب على المرسل إليه).
 - 3- مرجعية (حين يكون التركيز على السياق).
 - 4- معجمية (حين يكون التركيز على الشفرة).

يعتبر عنصر النسق مركز في مشروع النقد الثقافي، جاء لدراسة الأنساق المضمرة الموجودة داخل الخطابات الثقافية، إنّه "فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، وما هو غير رسمي وغير مؤسّساتي، وما هو كذلك سواء من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي"¹⁰.

تبعاً لذلك، النسق الثقافي هو نسق مميز لديه خصائص تميزه عن غيره من الأنساق الأدبية (الجمالية). وكذلك اللغوية، وهذا يعود إلى أنه مضمّر ويتخفى وراء قناع الجمال، لكن هذا لا ينفي وجوده داخل الخطاب، فالأنساق الثقافية موجودة منذ الأزل على حد تعبير الغدامي، وكذلك يقول الغدامي أن النسق يتحدّد من خلال وظيفته، كما ذهب إلى القول أنّ النقد الثقافي يتحدّد هو الآخر من خلال وظيفته أيضاً، فالنقد الثقافي معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي، إنما فرضه كشف المضمّرات كشف المخبوء من تحت أفتحة البلاغي/الجمالي، لذا فهو نظرية تكشف حركة الإنسان وفعلها الصاد للوعي وللحس النقدي¹¹.

وعليه نجد أنّ العنصر النسقي ركيزة أساسية في مشروع النقد الثقافي، إنّه خلاف النسق الظاهر المعلن، فهو نسق ثقافي غير معلن، أو إن صح القول هو نسق ثقافي مطموس، من خلاله نستكشف مختلف الأنساق ونعري أهم المضمّرات المتوارية خلف النص/الخطاب.

المحور الثاني. التحوّل الدلالي: من الوظيفة الجمالية إلى

الوظيفة الثقافية النسقية المضمرة

لقد جعل رومان جاكبسون Roman Jakobson للرسالة ستة عناصر، وأطلق عليها ترسيمة التخاطب، ولكل عنصر وظيفته الخاصة داخل عملية التواصل، وجاء عبد الله الغدامي بوظيفة سابعة هي "الوظيفة النسقية"، هذه الأخيرة ترتبط بعنصر النسق، ويرى الغدامي أنه لا بد من ربط النقد الثقافي بالنسقية، يقول: "نقترح إجراء تعديل أساسي على نموذج رومان جاكبسون وذلك بإضافة عنصر سابع هو ما نسميه بالعنصر النسقي... فإننا نتيج بهذا

5- تنبيهية (حين يكون التركيز على أداة الاتصال).

6- شاعرية/ جمالية (حين تركز الرسالة على نفسها، وهذه هي إضافة ياكبسون التي بها أجاب على سؤال الأدبية، وكيف تتحول اللغة إلى صفها الأدبية).

7- الوظيفة النسقية (حين يكون التركيز على العنصر النسقي كما هو مقترح الغدامي لاقتراح وسيلة منهجية لجعل النسق والنسقية منطلقاً نقدياً، وأساساً منهجياً، وهذا هو المنطلق الأول في مشروعه النظري¹⁶.

وكانت إضافة الغدامي للعنصر النسقي ذي الوظيفة النسقية المبدأ الأساس الذي بنى عليه مشروعه النقدي نحو النقد الثقافي النسقي، بدل النقد الأدبي الجمالي بتعرف مجموعة الأبعاد الاجتماعية، والتاريخية، والسياسية ببعد ثقافي لتعرف كذلك مستوى اللغة التي نكتب بها خطابتنا، وما تحمله من مضمرات (مسكوت عنه) تحت غطاء وزيف الجمالية والأدبية.

على هذا الأساس ذهب الغدامي إلى أنَّ للدلالة نوعين، هما: الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية المضمرة، يقول الغدامي: "إذا قبلنا بإضافة عنصر سابع إلى عناصر الرسالة الستة، وسميناه بالعنصر النسقي، فهو سيصبح المولّد للدلالة النسقية، وحاجتنا إلى الدلالة النسقية هي لبّ القضية، لأنَّ ما نعهده من دلالات لغوية لم تعد كافية لتكشف كلَّ ما تخبئه اللغة من مخزون دلالي، ولدينا الدلالة الصريحة التي هي الدلالة المعهودة في التداول اللغوي، وفي الأدب وصل النقد إلى مفهوم الدلالة الضمنية"¹⁷. ما يهمننا هنا، هو التسليم بضرورة إيجاد نوع ثالث من الدلالة، هو الدلالة النسقية، وأن نسعى عبر هذه الدلالة إلى الكشف عن الفعل النسقي من داخل الخطابات، وتكون الدلالات حينئذ على النحو التالي¹⁸:

1- الدلالة الصريحة: هي عملية توصيلية.

2- الدلالة الضمنية: هي أدبية جمالية.

3- الدلالة النسقية: هي ذات بعد نقدي ثقافي، وترتبط بالجملة الثقافية.

بناء على ذلك نجد أنَّ نظرية النقد الثقافي -تحديداً- تجاوزت في جوهرها النقد الأدبي الذي يبحث في الجماليات إلى البحث في الأنساق الثقافية المضمرة تحت غطاء الفني الجمالي، لتكشف لنا عن الثقافة كحقل ومجال يدرسه

النقد الثقافي، وقوام هذا النوع من الدراسات أنه لا يبحث في الأدب والأدبية فقط، إنما يتعدى إلى دراسة القبحيات والمسكوت عنه داخل هذا الإبداع والجمال، ويدرس الأنساق الثقافية التي يمررها الأدباء من خلال كتاباتهم، وهذا سيكون منطلقنا في هذه الدراسة التي وسمناها بـ: صراع الأنساق المضمرة في السرد الجزائري المعاصر: رواية قلب الإسباني لـ "جميلة طلباوي" أنموذجاً، أين سيكون تركيزنا فيها على ثلاثة أنساق أساسية متجلية في رواية قلب الإسباني ظاهرة كانت أو مضمرة -خاصة النسق المسكوت عنه لأنَّ النقد الثقافي يبحث فيه- هذه الأنساق، هي: النسق التاريخي، النسق الديني، النسق الثقافي الحضاري.

المحور الثالث. الأنساق المضمرة في رواية قلب الإسباني:

من خلال تتبعنا لمجموعة الأحداث التي مشهدها الرواية وكذا تحليل شفرات الملفوظات السردية بها، استجلينا الكثير من الرؤى الفكرية والثقافية والدينية... الدالة على رؤية الروائية جميلة طلباوي، لكن لم تصرح بها بشكل مباشر إنما اضمرتها في نصها وتقنعت بجماليات النص. كانت هذه المضامين الفكرية ذات أبعاد دلالية عميقة نابغة من روح المجتمع الجزائري، لعل أبرز هذه الأنساق النضمرية ما يلي:

أولاً. النسق التاريخي:

كان للنسق التاريخي دور مهم داخل الرواية، لأنها تسرد وبشكل رمزي ومضمر أحداثاً تاريخية لها شأن ومكانة عظيمة في التاريخ العربي، المتمثلة في سقوط الأندلس بعدما كانت ملكاً للحضارة العربية استولى عليها الغرب وأصبح لها معنى جديد "إسبانيا"، لكن الروائية جميلة طلباوي تناولت هذه الحادثة بشكل مضمر أكثر من الظاهر، وأعطتها سبكا وتصويراً جديدين بصيغة أدبية محملة بشحنات ثقافية تاريخية، لأنَّ الروائية هنا تحاول تصوير العلاقة القائمة بين الشرق والغرب في عصرنا هذا، وأكدت على ضرورة التواصل بينهم رغم الاختلافات الموجودة بين الثقافتين العربية والغربية، فزراعة القلب لبطل الرواية "عبد النور" ذو الأصول العربية في غير بلاده، تحديداً في إسبانيا من طرف صوفيا، ذات الأصول الإسبانية، فشكّلت لنا جميلة طلباوي

كانت تمثل قلب الحضارة العربية الإسلامية لما حفلت به من إرث تاريخي في بنائها، وشوارعها، وحتى النقش العمراني بالخطوط العربية الأصيلة هي موروث عربي بامتياز.

بالإضافة إلى هذه الحادثة المهمة نجد جميلة طلباوي تفخر وتصور لنا منطقة بشار الجنوبية التي كانت حلم المستعمر في يوم من الأيام، وحاول الاستيلاء عليها هي الأخرى (بشار) فيها مناطق عريضة وآثارا تمثل العادات والتقاليد للمجتمع الجزائري، لكن لم يظفر بها المستعمر وهذا لتوارها نجد الروائية قد أشارت لهذه الفكرة في المقطع التالي: "الجد أماسي تلك المرأة السمراء الطويلة الممتلئة ضخمة الجسم، كانت لها هيبة خاصة في الحي الشعبي الدبدابة، كيف لا وهي المجاهدة التي حملت السلاح وحاربت الاستعمار الفرنسي إلى جانب الرجال، الذين كانوا ينادونها باسمها الثوري المستعار (السي قدور)"²². هنا أشارت جميلة طلباوي إلى المرأة البشارية الثورية، وكيف ساندت الرجال من أجل استقلال الجزائر، وذكرت أيضا أن عائلتها حاربت من أجل استقلال الجزائر في قولها: "تلك اللبوة كان الرجال يحسبون لها ألف حساب، وكان زوجها السي العربي يحترمها ويحبها، أنجبت منه المهدي واستشهد، عزاؤها بعده هو استقلال الجزائر وأن ابنها الوحيد سينجب لها سلالة من الرجال يشبهون جدهم الشهيد رحمه الله"²³. حمل هذا الملفوظ السردى نسقا مضمرا في أن الجزائر شهدت استعمارا، وتحديدًا منطقة بشار الجنوبية، لأنها ذات ثروة هائلة، لكن بسبب أبناء الثوار نالت الاستقلال، ولم يظفر بها المستعمر، وبقيت تابعة للجزائر، وحافظت على موروثها الذي تحتفل الجزائر اليوم بوجوده، وأيضا إشارة إلى الاحتلال الإسباني للجزائر العاصمة، وهذا قبل الاحتلال الفرنسي، حيث نجد إلى يومنا هذا أشخاصا يلقبون بالإسبانيوليين في شمال الجزائر، وربما بطل هذه الرواية منهم، حيث كان يلقب بعبد النور السبنيولي، ونجد أن الروائية أشارت إلى حروب الجيش الإسباني على الجزائر العاصمة في قولها: "وحتى أن الإسبان والأوروبيين تعرفوا على الجزائر العاصمة قبل احتلالها من طرف فرنسا عام 1830م، من خلال علم الخرائط ودراسات الباحثين الإسبانين سوسا وآيدو اللذين عاصرا سرفانتيس مرتكزين في دراستهما على شهادته حول الجزائر العاصمة خلال

بشكل مضمّر ذلك اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب تحت مسمى مبدأ التعايش الإنساني، لقاء صوفيا التي ترمز إلى القداسة، لأنها امرأة حكيمة في الثقافة الغربية، حيث أن عاصمة الجمهورية البلغارية تسمى "صوفيا" بعبد النور، كانت الروائية في اختيارها هذا الاسم "عبد النور" تتفائل بنور جديد، تفاؤل من الرواية بعودة الأندلس إلى الحضارة العربية، كما كانت من قبل مثلما عادت الحياة إلى عبد النور المريض، أعادت له الحياة الطيبة الإسبانية "صوفيا" من خلال عملية زرق قلب إسباني في جسد عربي، ويتجلى هذا في قول الروائية: "لولا أن زوجته الطيبة الإسبانية أنقذته ونجحت في زراعة قلب له، فحققت نجاحا وشهرة وعاش هو فرصة أخرى للحياة، قلب إسباني هو بقايا أندلس كانت تسكن ذاكرته راح ليستوطن بقاياها فاستوطنت جسده"¹⁹.

في هذا المقطع السردى ومقاطع أخرى من الرواية سنأتي على ذكرها لاحقا، أشارت جميلة طلباوي إلى الأندلس وربط علاقة "عبد النور" بـ"صوفيا" تشبها لها بعلاقة العرب بإسبانيا "الأندلس" التي كانت ملكا للعرب، واليوم أصبحوا يزورونها غرباء من خلال سرد الروائية قصة "عبد النور" الذي عاش في إسبانيا، وبقلب إسباني الذي هو عنوان الرواية في الأساس، بهذا التصوير للأحداث، وكأنها تصور نظرتها المستقبلية، أملا منها بعودة الأندلس لأحضان العرب من جديد، فتشفي قلوبهم من حزنهم على خسارتها، حيث تقول جميلة في أحد المقاطع أن "عبد النور" كان يرى في صوفيا "الأندلس المفقود" تحديدا في قولها: "كان يراقص فيها أندلسا مفقودة وكانت تراقص فيه فارسا لم يكتب عنه سرفانتيس"²⁰. رغبت جميلة طلباوي الجزائرية المبدعة في عودة الأندلس في يوم من الأيام، تجلت في مقاطع كثيرة من هذه الرواية، نذكر منها أيضا قولها في أحد الملفوظات: "يذكر أيوب بأن عبد النور في مكالمته هاتفية معه وفي مساء صيفي ذبلت شمسها ومالت للمغيب قال له: هل صدقت بأنني إسباني يا أخي؟ أعلم بأن جسدا بقلب أجنبي كان لا بد له أن يتآكل، أن تتحرك الغرغرينة في أجزائه لتدمر خلاياه وإنهائه تماما كما انتهت الأندلس فما كانت في نظر الذي استأهلوها سوى الغرغرينة تمت في قارتهم فاستأصلوها"²¹.

يحيلنا هذا التصوير إلى النكبة والصدمة التي لازمت العرب منذ خسارة الأندلس وغرضهم التنديد على فقدانها لأنها

إقامته بين عامي 1571م و1575م²⁴. تؤكد جميلة طلباوي أنّ الجزائر كانت محط اهتمام الإنسان منذ الفترة المذكورة وهم سبقوا فرنسا إليها هذا راجع إلى أهمية الجزائر وثرواتها، استحضرت هنا جميلة طلباوي تاريخ الجزائر العريق، هذا لأنها ابنة هذا الوطن، حبها لتاريخ وطنها واعتزازها به جعل سبب لحضور هذا التاريخ في كتاباتها، وتقول أيضا في ذات السياق: "وشاء القدر أيضا أن يفقد سرفنتيس عضوا من أعضائه أثناء مشاركته في الحرب مع الجيش الإسباني"²⁵. هذه الحرب التي سجلها تاريخ الجزائر التي احتلت مرتين من طرف الآخر الأجنبي (الإسبان ثم فرنسا)، الذين أرادوا للجزائر أن تصبح جزءا لا يتجزأ منهم، أن تصبح بلدا أجنبيا، أن تلقى ذات مصير الأندلس، لكن لم يفلحوا في هذا لوجود أبطال وشهداء حاربوا بالنفس والنفيس من أجل أن تعيش الجزائر حرة مستقلة، واستمرت جميلة طلباوي في سرد أحداث الأخوين عبد النور وأيوب والحياة التي عاشها عبد النور في إسبانيا مع زوجته الطيبية الإسبانية "صوفيا" التي اهتمته بالإرهاب، وكأنها أعادته إلى حالته الأولى منقذته التي منحتة الحياة أرادت سلبه إياها من جديد بهذا الاتهام: إرهابي.

هذا السبب الذي جعله يعود إلى بلاده الجزائر من جديد، لكن في حالة يأس ومرض الذي كاد أن يموت إثر شجار دار بينه وبين أخيه أيوب، الذي ظنّ أنه قد مات لكن فجأة تعود إليه الحياة بسبب اتصال من "صوفيا". صوّرت جميلة طلباوي هذه الحادثة في المقطع الآتي: "تتسارع ضربات قلبه وقد أدرك بأنّ ضوء النهار سيفضح جريمته، يزيد من وطأة الأمر رنين هاتف عبد النور... يخيّل له بأنّ جبّا عميقًا فتح تحت قدميه ليسحبه للقاع وهو يرى اسم صوفيا مرسوماً على هاتف عبد النور. يفقد توازنه، يسقط أرضا، وسمعه يلتقط أنينا يصدر عن جثة أخيه. يتصاعد الأنين تتحرك يد عبد النور"²⁶. وتعود الحياة لعبد النور الذي يمثّل العربي، وهذا بسبب صوفيا (الأندلس المفقود) في نظره، وتستمر جميلة في وصف هذه اللحظات في قولها: "يطلق أيوب ضحكة هستيرية من سخرية لحظة رأى فيها كيف أنّ هاتف صوفيا أعاد الأندلس لروابي روحه فأعاده إلى الحياة، صوفيا خطارة أفرجت ماء الحياة من بئر ما أغدقت به على جسد عبد النور فتحرّك الجسد الذي ظنّ

أيوب أنه جفّ ومات"²⁷. وصفت جميلة طلباوي كل الأحداث التي مرّت بها نكبات الأندلس قبل سقوطها هذه الأحداث التاريخية، التي رسخت في ذاكرة جميلة طلباوي، واستحضرتها هذه الرواية، وربما في روايتها الأخرى دليل على إلمامها بالتاريخ العربي والجزائري، والنهاية التي وضعتها في المقطع السالف الذكر هو نظرتها بعودة الأندلس من جديد للعرب.

ثانيا. النسق الديني:

كان للنسق الديني في الرواية إضافة إلى الأنساق السابقة الذكر دورا مهما في تمرير مجموعة من المضمرات، يعدّ الحديث عن هذا النوع من الأنساق الدينية أمرا ضروريا، هذا لأنّ الدين هو أهم ركيزة في تكوين الحضارات والشعوب والأمم، فالنسق الديني يعكس لنا الفلسفة والأفكار والمعتقدات التي تؤمن بها الشعوب في علاقتها بالوجود والكينونة، وكما هو معروف أنّ العرب هم مهد الديانات السماوية، وأيضا معروف عن المجتمعات العربية أنها تعطي الدين أهمية بالغة في تكوينها، حيث يشغل مساحة كبيرة من حياتنا الاجتماعية والفكرية والعاطفية، ورواية "قلب الإسباني" تعالج جملة من الصراعات داخل المجتمع العربي الجزائري، هذا الصراع الذي يشمل جميع جوانب الحياة، وبشكل الجانب الديني جزءا مهما منه، حيث جاءت رواية "قلب الإسباني" محمّلة ببعض المضمرات المتعلقة بالنسق الديني، حاولت جميلة طلباوي من خلال ذكرها بعض الأفكار المتعلقة بالنسق الديني في الرواية أن تبرز قيمة الإسلام والقرآن داخل المجتمع الجزائري، ويمكن أن نلمس هذا من خلال قولها: "أصبحت الجدة أماسي تتصدر المجالس النسوية باعتزاز وهي تتحدث عن حفيديها وكيف أنهما يحفظان القرآن في الكتاب"²⁸. يدلّ هذا القول على أنه لحافظ القرآن مكانة في المجتمع الجزائري، حيث تقام تكريمات وولائم للأطفال حافظي القرآن، نجد الروائية إشارة لهذا في قولها: "فيصنعون فرحة أهاليهم وبهجة الزقاق، وينالون من هبات سكّان الحي، هي بيض يقدمونه لمعلمهم (الطالب) مكافأة أن سهر على تحفيظهم كتاب الله، وبالمقابل يزن لهم الطالب لوحاتهم التي كتبوا عليها سور القرآن الكريم"²⁹. هنا تؤكد جميلة طلباوي أنّ العائلات البشارية هي عائلات مسلمة تعزّز بالدين الإسلامي والقرآن

في العي لم تعد وجهتهن حين يمرضن 'الطالب السي أحمد'، ولم تعد التماثل المعلقة على صدورهن تكفي، بل أصبح يقصدن أيوب ليقبس لهن ضغط الدم ونسبة السكري في الدم، يستقبلهن في مصلحة العلاج ويرشدن إلى الطبيب³². تريد جميلة طلباوي هنا أن تنوهدا إلى فضل العلم الذي حثَّ عليه الدين وكرم العلماء في إلغاء مثل هذه العادات الوثنية التي تشرك بالله عزَّ وجلَّ، فالعلم مهم في فهم الدين وتعاليمه، وخير دليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (28). سورة غافر، الآية 28.

هذه الآيات التي تدلُّ على فضل العلم والعلماء ومكانتهم في الدين الإسلامي، بالإضافة إلى أنها أشارت أيضا إلى قضية وأد البنات في حديثها عن قيمة المرأة، وأيضا إلى قصة قبيل وهابيل الأخوين اللذين دار بينهما صراع بين امرأة، والذي كان فتنة في الأرض في قولها: "عينيه لم يصدق ما حدث، لم يصدق بأنه هو من أسال دم أخيه، وهو الذي قدس طولاً وصية والدته خالتي أم العيد: "الله يجعل خويا سلطان وأنا وزيره، مقولة لو عرفها قابيل وهابيل لما حدثت جريمة فوق الأرض، وهي ذاتها المقولة التي جعلته يتنازل لأخيه عن حقوقه لكنه اليوم جعل منه جثة هامدة"³³. حين قراءة هذا الملفوظ السردي نصل إلى أنه يوجد متخفيا وراءه يتمثل فيه أنه اتهام للعرب في بداية الجريمة على الأرض، وأنه رغم اطلاعهم على الدين وهم مسلمون، إلا أنهم لم يلتزموا، ولم يتقيدوا بجميع تعاليمه، وأنه مجتمع مسلم في ظاهره، ومشارك في باطنه.

ثالثا. النسق الحضاري والثقافي:

يشكل هذا النسق البنية الكبرى بالنسبة إلى الأنساق المذكورة سابقا، خاصة أن الروائية جميلة طلباوي عالجت نسقا مضمرًا مهما في ثنائيا الأحداث التي تسردها، المتمثل في الصراع بين الأنا (العربي) والآخر (الأجنبي)، هذا الصراع الموجود من القدم بين الثقافة العربية والثقافة الأجنبية، لكن مع مرَّ العصور اختلفت أساليب هذا الصراع وأصبح يأخذ منحى آخر نحو الأدب والأفكار (صراع فكري

الكريم من خلال سردها لأحداث عائلة "أبا هادي" الذي سعى إلى تعليم أبنائه القرآن الكريم، ونجح هذا الأمر مع ابنهم الأكبر "أيوب"، على خلاف "عبد النور" الذي تمزّد حتى على حفظ القرآن، ووضحت الروائية هذا في قولها: "تسلسل أيوب في مكانه، اعتصر شفة ارتجفت وتيبّست بفعل البرد والعطش وقد أرك بأنَّ روح والده لن تتفهم بأنَّ عبد النور خلق هكذا عنيدًا منذ صغره، تمزّد على الدخول إلى الكتاب، ولم يحفظ سورة من القرآن الكريم لم يكن معنيًا بفرحة الصبية أقرانه بختم حفظ كتاب الله وهم يحملون اللوح الذي يكتبون عليه الآيات والصور والسمي"³⁰. هذا دليل على ارتباط هذا المجتمع بمنظومة دينية لها شأنها داخله، لكن في بعض المقاطع السردية نلمس وجود عادات داخل هذا المجتمع كانت متواجدة قبل دخول الإسلام ثم بعد مجيء الإسلام حرّمها لأنها شرك بالله عزَّ وجلَّ، والمتمثل في زيارة "الطالب" وتعليق التماثل من أجل شفاء مريض وما شابه ذلك. أشارت جميلة طلباوي إلى هذه الفكرة المهمة أثناء حديثها عن مرض "أيوب" و"عبد النور"، اللذين أقرّت عائلتهما بأنَّ عينا أصابتهما، وتحديدًا في هذا الموضع: "شقة خالتي حادة في تماثل الطالب 'السي أحمد' كانت كبير تشرك في ذلك مع باقي نسوة العي، فهو مقصدهن كلما تأملت إحداهن أو تأخر حملها، أو مرض أحد أطفالها أو أحد أفراد عائلتها. تحمل النسوة الهدايا للطالب السي أحمد، يقبلن رأسه ويده، ويحكين له همومهن ويشكين له الآمهن، الطالب السي أحمد كان بالنسبة لهن خطّارة من نوع آخر يسحب لهنَّ السعادة والصحة من قاع بئر عجيب"³¹. تعدّ فكرة تقديس الأشخاص، وإنزالهم منزلة الإله من أهم الأفكار التي عرضتها جميلة طلباوي لأنها كانت عبارة عن عادات تمارسها نساء تلك المنطقة التي هي في حدّ ذاتها منطقتهما بشار، لكن وراء هذا التصور الجمالي يوجد المضمّر القبيح الذي لا يمكننا الإغفال عليه، وهو أنّ الله واحد أحد لا يمكن الإشراف به، هذا ينافي عقيدتنا الإسلامية، لأنّ مثل هذه المظاهر ما هي إلا بقايا أفكار الجاهلية التي دعت إلى الإشراف بالله، كيف لمثل مجتمعاتنا اليوم، وبعد الإسلام والتطور تمارس هذه العادات التي تسيء لمجتمعاتنا العربية والدين الإسلامي، وتذكر أيضًا عن هذه الفكرة في موضع آخر قائلة: "مهنة أيوب كممرض غيرت حياة النسوة العجائز

ولا يؤمن بغير ذلك، على خلاف الأنا (العربي) الذي رغم أساسه إلا أنّ فكره مازال محدود الفكر على جاهليته الأولى، وأنّه في ظاهره مسلم، ورغم هذا يشرك بالله في ممارسة بعض العادات القديمة كتقديس الأشخاص مثل الشخصية المذكورة في الرواية "الطالب سي أحمد" صانع التمايم.

تصوّر لنا جميلة طلباوي أيضا انهيار الأنا والثقافة الغربية في جميع المستويات، حيث جسّدت جميلة طلباوي أحد الشخصيات، وهو منبر بالظروف المعيشية الجيدة التي حظي بها بعد هجرته من البلاد العربية (الجزائر) نحو إسبانيا، تصف كلّ هذا في قولها: "علال الطاوس عند قدومه إلى مدريد نزل ضيقاً على عبد النور، وظلّ عنده بضعة أسابيع. انهر منذ أول ليلة بشقة صوفيا انهر بالتفاصيل الصغيرة في بيتها حتى بالوسادة التي أسند عليها رأسه عند نومه أخبر عبد النور بأنّ ملمس الوسادة أنساه بؤس وسادته وهو طفل، يذكر بأنّ والدته كانت تحشو المخدات ببقايا الملابس القديمة"³⁷. هذا المقطع فيه تقليل من شأن الأنا العربية التي وصفها بالفكرة، الجهل والفقر، ومقابله الأجنبي الذي يعيش حياة الترف والحياة الكريمة، التي يستحقها الإنسان. هذا الانهيار بالآخر هو الذي جعله يسيطر على العقل العربي وجعله يطمح للعيش في بلد أجنبي ما يعرف لدينا اليوم بـ"الحرقة" الهجرات غير الشرعية، من البلاد نحو الآخر، لأن الآخر أخذ عنه صورة من صور الجنة على الأرض، وأنه سيجد هناك ما لم توفره له أرضه الأم. نجد أمثال هذا في شخصية "عبد النور" الذي تمرد من أجل الهجرة نحو إسبانيا، هذا لأنّ الجزائر لم تمنحه شيئاً، حتى العمل الذي يستحقه رغم أنه درس في مجال الطب والصيدلة، لم يجد عملاً له في بلاده متوفر له هذا في بلاد الأجانب إسبانيا، نجد هنا جازز في هذا الموضع: "مرارة هذا الواقع أدركها أيوب وتجربها مع جيله وبدأت تكبر وتتغول بعبارة "هنا ما كان والو" أو على رأي محمود درويش:

لا شيء يعجبني

يقول مسافر في الباص، لا الراديو

ولا صحف الصباح ولا القلاع

على التلال

أريد أن أبكي"³⁸.

حضاري)، تحدّثت جميلة طلباوي عن حضارتين مختلفتين، الأجنبية (إسبانيا) والعربية (منطقة بشار في الجزائر)، ورصدت لنا أهمّ الفوارق بينهما خاصة الاجتماعية، من حيث طرق العيش داخل المجتمعات فالعادات والتقاليد وكذلك العقيدة في المجتمع العربي مغاير تماماً لمقابلها الأجنبي، لأنّ العربية تتميز بالتحفظ وتحكمها الأعراف والعادات رغم وجود القوانين والدساتير، أما الغربية فنلاحظ أنّ الروائية في سردها للأحداث تكشف لنا مدى التحرر الموجود فيها، هذا معناه أنّ الآخر (الأجنبي) بمثابة المركز للأنا (العربي)، والباحث في ماهية ومفهوم الآخر (The other) يجد أن المقصود به كل ما هو (غيري) أي ما هو خارج نطاق الذات، والحدثيون في ترويحهم للحدثاء ومن بعدهم يرون أنّ الحدثاء وما بعدها يمثّلان النظرة الأمّ للآخر³⁴، حيث صورت الروائية جملة من المشاهد تصوّر مدى رقيّ الآخر وتطوّره، خاصة في شخصية "صوفيا"، هي الأخرى بالنسبة لعبد النور (الأنا العربي) المرأة الناجحة التي بفضلها عادت الروح إلى ذات عبد النور أثناء زراعتها قلباً له، نجد هذا يتمثل في قولها: "عبد النور ظلّ مدينا لصوفيا بحياته، فيوم نقل في حالة حرجة إلى المستشفى إثر أزمة قلبية، ضلّت تقف إلى جانبه وترعاه، وبعد أن صدر تقرير الطبيب بأن لا أمل لعبد النور في الشفاء، لم تيأس وبدأت في البحث المثبت في مخرج إلى أن تمكّنت من تسجيله في برنامج طبي لزراعة القلب في أكبر مستشفى في مدريد، تكاليف العملية كانت باهضة الثمن"³⁵. صورت لنا الروائية هذا الآخر في قمة عطائه، حولت لنا "صوفيا" (الآخر) أنها أعادت الحياة للأنا العربية (عبد النور)، وأنها تتصف بقيم إنسانية عالية، هذا لأنها كانت ترعاه وأيضاً كانت كريمة لأنها دفعت تكلفة العملية الجراحية. وتستمر في رسم صورة راقية للآخر، للإسبانيين وأنهم بلغوا من العلم درجات، وذلك في قولها: "ظلت الجدة أما ستي لسنوات تمدح في الطبيب الإسباني وتدعو له بالخير قائلة: (الله يكثر خير الطبيب السبنيولي). أما ستي كانت أدركت بأنّ الطبيب (السبنيولي) قد أثبت تفوّقه على تمايم الطالب السي أحمد، وصارت العائلات من زقاق عمي سالم تقصده لعلاج أطفالها المرضى"³⁶. في هذا القول يتجلّى نسق مضمر مفاده أنّ الآخر (الإسباني) متفوّقة من الناحية العلمية، ويدرك قيمة العلم

"كان الارتياح بادياً على هؤلاء النسوة بما فهمن والدته خالتي "أم العيد"، حتى أنهن استبدلن الحايك زهن الأصيل بالجلابة، وتخلين عن النقاب، وأصبح يسارين عصراً جديداً بدأ يغير تفاصيل الحياة في حيّ الدبدابة الشعبي الكبير"⁴¹. يبدو للمتأمل في هذا القول أنه أمر جيد أن تواكب النساء الأزياء العصرية، لأنه يدلّ على التطور ومواكبة روح العصر، لكن ما يخفيه هذا القول كان أعظم من هذا، ففكرة التخلي عن الزي التقليدي "الحايك"، الذي يرمز إلى الحضارة في منطقة بشار الجزائرية، هو انسلاخ من الهوية العربية، وارتداء الجلابة الذي ينتهي إلى غير ثقافتنا بمعناه إحلال لثقافة الآخر وانصهار الأنا داخلها تبدأ هذه العملية (الانصهار) بشكل تدريجي من الملابس، طريقة الأكل، والأكل في حدّ ذاته، حيث أصبحوا يجدون الأكل السريع، وفي القول السابق تذكر "تخلين عن النقاب"، النقاب لباس مقدّس فرضه الله عزّ وجلّ على نساء المسلمين، فالتخلي عنه تعدّ على قيم الشريعة الإسلامية، هذا كلّه طمس للهوية العربية، لأنّ العرب انساقوا وراء زيف الحضارة، فأصبحوا بلا حضارة، لأنّ القيم الحضارية عندهم تغيرت، كل الأشياء التي تميّزوا بها ضاعت تحتلّ لواء مواكبة التطور والعصرية. وصفت جميلة طلباوي الكثير من العادات الأجنبية التي تخللت المجتمع الجزائري وعائلة "أبا هادي"، الذي حاول تربية ابنه منذ الصغر على القيم والدين، لكن عندما كبرا وتغيّرا تأثرا بالثقافة الغربية، وأخذوا عنها قيما طمست كل ما كانا يحملانه، خاصة الابن الأصغر "عبد النور" أصبح بالفعل إسبانيا ليس فقط في لون عينيهِ الخضراوين وشعره الأصفر، الذي جعل الحي يلقبوه بـ"السبنيولي" بل في عاداته، لأنه أصبح فقط جسدا عربيا بقلب إسباني. هذا هو مصير بلاد العربي تقلّد الغرب في أبسط أمور الحياة، وهذا ما جعل الأجنبي (الآخر) مركزا والأنا (العربي) هامشا، لعدم التمسك بالقيم العربية الأصيلة جعلنا نخسر الهوية الثقافية والاجتماعية.

خاتمة:

لقد أفضت هذه الورقة البحثية إلى جملة من النتائج تمحورت في أساسها حول صراع الأنساق المضمرّة في السرد الجزائري المعاصر -تحديدا- رواية قلب الإسباني للروائية

في توظيف الروائية لقول محمود درويش، الذي مرّت عليه أجيال أنّ المثقف العربي مازال يعاني جهل مجتمعه الذي لا يمنح له العمل ولا الحرية، ولا يقدر مكانته العلمية، هذا كان سببا في الزحف نحو الآخر الذي خيل لهم الفرصة الثمينة، وتؤكد الروائية على هذه الفكرة في قولها: "العبارة جعلت جيلا كاملا يرغب في الابتعاد عن "هنا" بحثا عن "هناك" في الضفة الأخرى وراء البحر"³⁹. نعم، وكيف لا يفكرون في هذا وكل الظروف تدفعهم للهجرة نحو الغرب.

كما نجد الروائية تشير إلى فكرة الاستحواذ الثقافي Cultural Appropriation، استحوذ الآخر الإسباني على فكر العربي الذي أهرته ثقافته، وطرق عيشه، ذهبت الأنا العربية لتعيد ما سلب منها (الأندلس)، وتستوطن هذه البلاد التي كانت عربية الأصل، بدل هذا حدث أمر معاكس استوطنته لقول الروائية: "قلب إسباني هو بقايا أندلس، كانت تسكن ذاكرته راح ليستوطن بقاياها فاستوطنت جسده"⁴⁰. الآخر استولى على الأندلس التي مثلت قلب الحضارة العربية، وهذه كانت الضربة القاضية لنا نحن العرب.

زراعة القلب للبطل "عبد النور" في غير بلاده في إسبانيا تحديداً مدريد من طرف طبيبة إسبانية "صوفيا" في ظاهرة إعادة للحياة، لكن ما تخفى وراء هذا كان أعظم، استغل الآخر ضعف ومرض قلب عربي ليستأصله ليصبح هذا العربي جسد فقط بقلب إسباني، إذا استأصل هذا العضو (القلب) الذي هو أساس عيش باقي الأعضاء، عيش البطل بقلب إسباني بمثابة زرع قيم جديدة داخله مع القلب الجديد قيم وعادات صاحب القلب إسباني المخالف لعادات العرب. نجد كذلك مظاهر الاستحواذ على الثقافة العربية وطمس الهوية العربية من خلال التخلي حتى على الأزياء واللباس التقليدي، الذي يمثل الهوية العربية، فاللباس مظهر من مظاهر الثقافة التي يتبناها المجتمع وتميّزه عن غيره، نأخذ على سبيل المثال المجتمعات الهندية تملك لباسا مميّزا بمجرد النظر إلى صاحبه تعرف انتماءه إلى الهند، ويقدمون هذا اللباس لدرجة أنهم يلبسونه حتى في الاجتماعات الرسمية، على خلاف ما نراه اليوم في المجتمع العربي الجزائري تحديدا، أصبح يقلّد الغرب حتّى في اللباس، وضعت الروائية هذا الطرح في مشهد حين قالت:

الجزائرية "جميلة طلباوي"، ويمكننا تحديد أهم هذه النتائج في النقاط الآتية:

❖ النسق اللغوي البنيوي مفهومه ثابت وجلي لأرطباته بالنحو اللغوي أما النسق الثقافي متحوّل متخفّي وراء أقنعة لغوية لهذا يسعى بالنسق المضمّر/ المتواري/ المسكوت عنه.

❖ النسق الثقافي يختلف عن غيره من الأنساق الأدبية واللغوية كونه مرتبط بما وراء اللغة أي ما وراء الجماليات، من هنا تأتت وظيفته الكشف عن أقنعة الجماليات اللغوية المتوارية، وأطلق الغدامي على وظيفته الوظيفة النسقية، وهي ليست من اختراعه إنما هي موجودة منذ الأزل مع وجود التواصل الإنساني.

❖ إنّ رواية "قلب الإسباني" تحمل الكثير من الأنساق الثقافية المضمرة والظاهرة على حدّ سواء ذكرنا منها نسق الصراع بين الأنا والآخر بحثاً عن الهوية، كذلك النسق التاريخي الذي أشارت فيه الروائية إلى الأندلس قلب الحضارة العربية، أملا منها أن تعود تلك الجوهرة إلينا يوما ما، ويعود مجد العرب الضائع.

❖ كان لحضور المضمّر الديني نصيب من هذا النصّ السردى لجميلة طلباوي أين صوّرت لنا في الكثير من الملفوظات مشاهد عن مظاهر دينية عقائدية تتميز بها منطقة بشار الجزائرية، منها تحفيظ القرآن الكريم للأطفال الصغار في الزاوية والكتائب القرآنية، إن دلّ هذا على شيء إنما يدل على مكانة القرآن لديهم باعتبارهم شعب مسلم في مقابل ذلك تحدثت الروائية عن بعض المظاهر التي تمس بالدين الإسلامي كزيارة "الطالب" و"تعليق التمانم"، هذا ما خلفته الجاهلية في الشعب ويجب التخلي عنه لأنّ الإسلام فصل في ذلك باعتباره شرك بوحداية الله وقدرته.

❖ أما بخصوص الحضور التاريخي المسكوت عنه فقد أشارت الروائية في نصّها بشكر ضمني عن حوادث تاريخية جزائرية من بينها احتلال الغربي لمنطقة الشمال الجزائري وترك تبعياته خالدة إلى

اليوم، دليل ذلك وجود أشخاص يلقبوني بالاسبنيوليين. إضافة إلى هذا ذكرت أهم حدث تاريخي عربي هو سقوط الأندلس من يد العرب التي صارت تابعة للغرب الإسباني، هذا الفردوس المفقود الذي تأسس عليه -أساسا- سرد هذه الرواية -قلب الإسباني- لأنّ الأندلس كانت القلب النابض بالتاريخ والحضارة والثقافة العربية الإسلامية.

❖ اختيار الكاتبة "جميلة طلباوي" لأسماء شخوص الرواية لم يكن اختيارا اعطاطيا بل مركز يحمل مضمرا، خاصة البطلين "عبد النور" الذي مثّل الأنا العربية أفضل الأسماء ما "عبد" و"حمد" فهو يحمل ثقافة إسلامية، فنحن كلّنا عباد الله، أما "النور" فهو من أسماء الله الحسنى الذي سعى به اسمه، وتسميتها لبطلها بهذا الاسم يحمل في مضمره بعد استشراقي بعودة النور للعرب، عودة فردوسهم الأندلس، أما عن البطلة "صوفيا" فهي أيضا من الأسماء المقدسة في الثقافة الغربية، وزراعة القلب الإسباني في الروح العربية، والعلاقة بين البطلين ما هي إلّا مضمرا عن علاقة الحضارتين والصراع القائم بينهما.

قائمة المراجع:

- أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، 2002م.
- جميلة طلباوي، قلب الإسباني، ط1، منشورات الوطن اليوم، العلةمة-سطيف، 2018.
- حياة بوسعدة، حسين بوفناز، مقارنة سوسيوثقافية في مضمّرات الرواية الجزائرية المعاصرة: رواية قلب الإسباني لجميلة طلباوي نموذجا، مجلة القارئ للدراسات الأدبية، والنقدية واللغوية، مج7، ع2، جوان 2024، ص34، وينظر: حسين السماهيجي وآخرون، عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، 2002م.
- سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية وإضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).

الهوامش:

-
- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي -قراءة في الأنساق الثقافية-، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2001م.
- عبد الله الغدامي، عبد النبي اصطياف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004.
- عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010.
- محمد حايل، نسق اللغة -فرضيات وإشكالات الصيرورة-، ط1، عالم الكتب، 2012م.
-
- ¹ أحمد مؤمن، اللسانيات النشأة والتطور، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، 2002م، ص 127.
- ² ينظر: محمد حايل، نسق اللغة -فرضيات وإشكالات الصيرورة-، ط1، عالم الكتب، 2012م، ص 30.
- ³ عمر مهيبيل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، 2010، ص 21.
- ⁴ المرجع نفسه، ص 21.
- ⁵ المرجع نفسه، ص 22.
- ⁶ المرجع نفسه، ص 22.
- ⁷ المرجع نفسه، ص 22.
- ⁸ المرجع نفسه، ص 27.
- ⁹ المرجع نفسه، ص 24.
- ¹⁰ عبد الله الغدامي، النقد الثقافي -قراءة في الأنساق الثقافية-، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2001م.
- ¹¹ ينظر: حياة بوسعدة، حسين بوفناز، مقاربة سوسيو ثقافية في مضمرات الرواية الجزائرية المعاصرة: رواية قلب الإسباني لجميلة طلباوي نموذجاً، مجلة القارئ للدراسات الأدبية، والنقدية واللغوية، مج7، ع2، جوان 2024، ص34، وينظر: حسين السماهيجي وآخرون، عبد الله الغدامي والممارسة النقدية والثقافية، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، 2002م، ص96.
- ¹² المرجع نفسه، ص ص 64، 65.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 65.
- ¹⁴ المرجع نفسه، ص 65.
- ¹⁵ ينظر: المرجع نفسه، ص ص 65، 66.
- ¹⁶ ينظر، المرجع السابق، ص ص 66، 67.
- ¹⁷ عبد الله الغدامي، عبد النبي اصطياف، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004، ص ص 26، 27.
- ¹⁸ ينظر، عبد الله الغدامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، مرجع سابق، ص 73.
- ¹⁹ جميلة طلباوي، قلب الإسباني، ط1، منشورات الوطن اليوم، العلمة-سطيف، 2018، ص 46.
-
- ²⁰ المصدر نفسه، ص51.
- ²¹ المصدر نفسه، ص 56.
- ²² المصدر نفسه، ص ص 21، 22.
- ²³ المصدر نفسه، ص 22.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 76.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص 76.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 198.
- ²⁷ المصدر نفسه، ص 198.
- ²⁸ المصدر نفسه، ص 24.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص ص 44، 45.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 44.
- ³¹ المصدر السابق، ص 33.
- ³² المصدر نفسه، ص 73.
- ³³ المصدر نفسه، ص 10.
- ³⁴ ينظر: سمير الخليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية وإضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، (د.ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 9.
- ³⁵ جميلة طلباوي، قلب الإسباني، مرجع سابق، ص ص 50، 51.
- ³⁶ المصدر نفسه، ص 34.
- ³⁷ المصدر نفسه، ص 85.
- ³⁸ المصدر نفسه، ص 43.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص 43.
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص 46.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص 73.